

تجليّات الأنساق الثقافية في رواية "ياسمين أبيض" لخولة حمدي

Manifestations of Cultural Patterns in Khaoula Hamdi's Novel Yasmine Abyad

شيماء لعناني*

جامعة محمد البشير الإبراهيمي
برج بوعريريج (الجزائر)

chima.lanani@univ-bba.dz

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/23

تاريخ الاستلام: 2025/06/20

ملخص:

تهدف هذه المقاربة إلى البحث عن الأنساق الثقافية المضمرّة في رواية "ياسمين أبيض" لخولة حمدي، وإبراز الخلفيات الأيديولوجية المخبوءة تحت غطاء الحكّي السردّي، من مضمرات الخطاب؛ وذلك باعتماد الآليات الإجرائية لمنهج النقد الثقافي وما يتيح من شروط قرائية. وقد توصلنا إلى عدة نتائج، من أهمّها أن المنجز السردّي لخولة حمدي قد اختزل أنساقا ثقافية وأيديولوجية متعددة على مستوى النص والمناص؛ إذ كشفت في مجملها عن أنساق الرفض والمعارضة لمنطق الراهن المعاش وجاء تسليط الضوء على عدّة أنساق ثقافية مثل نسق: الأنا والآخر، التحدي، الأمومة، الحجاب، الظلم، الفساد الاجتماعي والسياسي... لتكشف عن سرد مقاوم عبر خطاب العتبات النصية والمحكيّات السردية الواقعية والمتخيلة. **الكلمات المفتاحية:** نسق، ثقافة، خولة حمدي، ياسمين أبيض، رواية.

Abstract:

This study aims to explore the implicit cultural patterns embedded in Khaoula Hamdi's Novel Yasmine Abyad, as well as to uncover the ideological foundations hidden beneath the narrative discourse. The analysis adopts the methodological tools of cultural criticism and the interpretive frameworks it offers.

The study reached several results, most notably that Hamdi's narrative work encapsulates a range of cultural and ideological patterns at both the textual and paratextual levels. These patterns collectively reveal a discourse of resistance and opposition to the prevailing social reality. The research highlights various cultural constructs, including those related to the self and the other, defiance, motherhood, the veil, injustice, and socio-political

* المؤلف المرسل: شيماء لعناني

corruption, thus exposing a resistant narrative conveyed through para-texts and both realistic and fictional storytelling.

Keywords: Pattern, Culture, Khaoula Hamdi, Yasmine Abyad, Novel

. مقدمة:

شهد الخطاب السرد النسوي المغربي في الآونة الأخيرة تحولات واضحة على مستوى البناء الموضوعات والرؤى، ليقدّم بذلك عدّة قضايا فكرية أيديولوجية وجودية تنبؤ عن وجود وعي جاد بالمتغيرات الخاصة في المجتمع العربي بصفة عامة والمغربي بصفة خاصة وفق مشاهد تخيلية محاكية لواقع معاش.

تطرح رواية "ياسمين أبيض" لخولة حمدي الصادرة لسنة 2023 عالماً موازياً للعالم الحقيقي، إذ سعت إلى بناء معالمة من بداية الصفحات الأولى بابتداع عالم متخيل يمثل وبصورة جد واضحة زيف الواقع بتناقضاته وبالتحديات التي يفرضها، مقدمة بذلك أنساقاً مضمرة ومعلنة خلف قناع الجمالي والبلاغي من اللغة، في محاولة منها لاستنطاق ومساءلة راهن مربوء تشظت فيه الذات متماهية في انسحاقات داخلية.

"ياسمين أبيض" هي صوت لمن لا صوت لهم، هي صوت الأرملة الضعيفة والفئات المستضعفة حول العالم، هي حكاية صمود وتحدي الأنثى التي نفسها المجتمع الذكوري القائم على مركزيات الفحولة، وعليه فقد جاءت هذه المقاربة الموسومة بـ: "تجليات الأنساق الثقافية في رواية ياسمين أبيض لخولة حمدي" للإجابة عن الإشكالية الآتية:

- ماهي أهم الأنساق الثقافية المضمرة والمعلنة التي ينهض عليها الخطاب السرد في رواية "ياسمين أبيض" وكيف تجلت على مستوى النص والدلالة؟

- هل استجاب خطاب السرد للآليات الاجرائية التي يقدمها النقد الثقافي؟
- كيف يشتغل عنوان "ياسمين أبيض" كبنية دلالية وإيحائية تمهد لعبور النص؟ هل أدى هذا (العنوان) وظيفته بنجاح؟
- انطلاقاً من هذه الإشكالية فإن هذا المقال يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:
- 1- التعرف على الكتابات النسوية والقضايا التي تعنى بالمرأة.
- 2- رؤية الواقع من خلال كتابات المرأة لفهم تطلعاتها آمالها خيالاتها وانكساراتها.
- 3- إبراز النفس الطويل للكتابة النسوية واختلافها عن باقي الكتابات.
- وللوصول إلى هذه الأهداف كان لابد من اعتماد الآليات الاجرائية والتأويلية التي يقدمها منهج النقد الثقافي والذي يعد الأنسب لهذا النوع المقاربات التأويلية.

2. في مفهوم الأنساق الثقافية

1.2 . النسق:

أ- لغة:

يرد مصطلح النسق في معجم لسان العرب لابن منظور بمعنى النظام والتنظيم أي كل ما هو منظم وفق شاكلة معينة يقول في ذلك: "وقد نسقته تنسيقاً ويخفف ابن سيده: تنسق الشيء ينسقه نسقا ونسقه نظمته على السواء... والنسق ما جاء على نظام واحد... ويقال رأيت نسقا: الرجال والمتاع أي بعضها إلى جانب بعض"¹. والأنساق هي مجموعة عناصر تشكل في اجتماعها كلا واحدا والنسق مفردة مضادة للفوضى البعثرة والتشتت.

جاء المعجم الوسيط هو الآخر مؤكداً على المعنى الذي ورد في لسان العرب ومضيفاً: "نسق الشيء نسقاً أي نظمته، يقال نسق الدرّ ونسق كُتُبُهُ. والكلام عطفَ بعضه على بعض" ² أي الترتيب والنهج الواحد المتقارب أي الشبه التوالي والتماثل.

ب- اصطلاحاً:

يرد مصطلح النسق system في عديد العلوم والمعارف اذ نجد الأنساق البنيوية واللغوية، الأنساق الاجتماعية، الأنساق الفلسفية والمنطقية، الأنساق الثقافية... وغيرها الكثير، وعليه فإن تحديد تعريف دقيق لهذا المصطلح ليس بالأمر بالسهل لتشعبه واختلاف ميادينه.

يشير فرديناند دوسوسير ferdinand de saussure للمصطلح في بعض أبحاثه اللسانية في معرض حديثه عن الكلام، اذ عمد إلى توظيف كلمة "نسق" أكثر من توظيفه لكلمة بنية اذ يستبعداها: "بصفتها مرادفاً لكلمة نسق، فهو يستعملها قليلاً... ثم يجدها غامضة حتى للتعبير عما نسميه بنية أو بناء الكلمة، وهو المعنى الوحيد الذي يستعملها به" ³.

يتعامل الاتجاه البنيوي مع فكرة النسق على أنه: "نظام ينطوي على استقلال ذاتي، يشكل كلاً موحداً وتقتزن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها" ⁴ فالنسق من وجلا رؤية نظر البنيوية عبارة عن ظاهرة خاضعة لنظام معين وتتكون من شبكة علاقات بين أجزاء النسق الكلي بمعنى أن الاتجاه البنيوي يدعو إلى المقاربة النسقية أي دراسة نصية داخلية وفق ما تملبه شروط المحايثة.

2.2. الثقافة:

أ. لغة:

وهو اسم مشتق من الثقافة ويقال: "تَقَفَ الشَّيْءُ تَقْفًا وَتَقَافًا وَتُقُوفَةً: حَدَقَهُ . وَرَجُلٌ تَقِفٌ وَتَقْفٌ وَتَقْفٌ: حَاقِذٌ فَهِمٌ... ابن السكيت: رَجُلٌ تَقِفٌ لَقْفٌ إِذَا كَانَ ضَابِطًا لِمَا يَحْوِيهِ قَائِمًا بِهِ، وَيُقَالُ: تَقِفَ الشَّيْءُ وَهُوَ سُرْعَةُ التَّعَلُّمِ. ابن دريد: تَقَفْتُ الشَّيْءَ حَدَقْتُهُ، وَتَقَفْتُهُ إِذَا ظَفَرْتُ بِهِ" ⁵.

تكشف المادة اللغوية لمصطلح ثقافة ارتباطه ب الحدق أي الفطنة الدهاء وسرعة الفهم والتعلم وهي صفات المثقف التي يجب أن يتحلى بها.

ب- اصطلاحاً:

يرى صلاح فنصوة في "تمارين في النقد الثقافي" أن الثقافة تعني: "جملة الفعاليات والمجالات الانسانية التي تتبدى في السلوك والتفكير معاً مما يُيسّر تعلّمه ونقله عبر الأنساق والنظم الاجتماعية" ⁶.

يكشف هذا القول عن ارتباط الثقافة بعدة جوانب فكرية سلوكية فهي مصطلح شامل ومتعدد الأوجه يدخل فيها الاقتصاد والتنظيم الاجتماعي والقيم الأخلاقية والمعنوية... الممارسات النقدية... ⁷

فالثقافة موجودة في عدّة مجالات من مثل:

. المعاملات الاقتصادية:

يندرج مصطلح الثقافة في التعاملات الاقتصادية والاستثمار العالمي؛ إذ أصبح هناك ما يسمى بالاقتصاد الثقافي والذي يعد جزءاً أو قسماً من الاقتصاد ويهتم هذا القسم بعلاقة الثقافة بالنتائج الاقتصادية.

- التنظيم الاجتماعي:

يرتبط مفهوم الثقافة بالمجتمع بشكل وثيق، فالمجتمع عبارة عن أفراد أو مجموعة كبيرة من الناس تعيش داخل حيز مكاني ما وبالتالي فإن هذه الجماعة لها قيمها عاداتها وتقاليدها وتمارس معتقداتها الخاصة، أي أنها تمتلك ثقافة معينة وعليه فإن الثقافة تشترط وجود مجتمع يمارسها كما أن المجتمع في حاجة إلى تنظيم معين "تنظيم اجتماعي" يضبطه ويسيره.

- مجال الأدب والدراسات النقدية:

تندرج الثقافة ضمن دائرة اهتمام الدراسات الأدبية بصفة عامة والنقد وتحليل الخطاب بصفة خاصة؛ إذ ظهرت كمنهج نقدي له ثوابته النظرية وخصوصياته الاجرائية في فترة ما بعد الحداثة كبداية عهد جديد لقراءة النصوص بعيداً عن المقاربات اللسانية البنيوية والسيمائية، فالنص بالمفهوم الثقافي عبارة عن وعاء أو قالب يحوي أنساقاً مضمرة تحت الأقنعة البلاغية والجمالية؛ وعليه فإن المهمة الأولى للناقد الثقافي هي البحث عن هذه الأنساق المخبوءة واستقراءها وفق ما يمليه منهج النقد الثقافي من شروط وأساسيات قرائية.

3.2. النسق الثقافي:

يكتسي مفهوم النسق أهمية بالغة أنه مفهوم قاعدي تبوأ حضوراً مكيناً ضمن المقاربات النقدية الثقافية، إذ يسعى إلى البحث في ما ورائيات اللغة من أنساق خفية مسكوت عنها كإجراء ضروري للوصول إلى مقصديات النص ومختلف دلالاته المحتملة المتوارية خلف قناع اللغة، إذا فالمسألة تتعلق بالبحث في ما وراء اللغة، أي ما يجعل الدلالة المعبر عنها في الخطاب ممكنة

انطلاقاً من هذا التصور فإن مهمة الناقد الثقافي تكمن أساساً في البحث عن شبكة الثغرات أو الفجوات المتواجدة على مستوى النص وملئها. يرتبط مصطلح النسق **system** في الدراسات الأدبية والنقدية بمرحلة ما بعد الحداثة فهو مصطلح ما بعد بنيوي ظهر استجابةً لتغير السياق المعرفي لما بعد الحداثة، مقدماً بذلك رؤية جديدة للنص الأدبي الذي يفتح على العالم والثقافة وبالتالي الانتقال من خطاب الأنساق المغلقة إلى خطاب الأنساق الثقافية المفتوحة فالنص الأدبي بموجب الدراسات النقدية الثقافية عبارة عن مجال ثقافي مفتوح على أنساق ظاهرة أو معلنة وأخرى مضمرة تحت غطاء الجمالي والبلاغي من النص، إذن فالكلمات وفقه هذا المنهج ليست شفافة فهي تحتمل أبعاداً مضمرة ضمن البنية العميقة وبالتالي فهي تحمل أكثر من مقصدية وعليه فإن مهمة الناقد الثقافي تكمن في حفر البنية العميقة للوصول إلى المعاني المخبوءة تفكيكها وإعادة ترتيبها وفق ما تمليه المقاصد المحتملة لمُرسل الخطاب

والنقد الثقافي كمنهج نقدي ظهر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في كتابات كل من جوناثان سوييف وجون روسكين إلى جانب ماتيو أرنولد كرد فعل لانغلاق المناهج النسقية على الفضاء النصي الداخلي للخطاب ومنه إلى محاولة الفكك من نظرية الانغلاق النصي وموت المؤلف والكتابة في درجة الصفر.

3. تجليات النسق الثقافي في رواية: ياسمين أبيض خولة حمدي.

1.3. سير الأحداث:

"ياسمين أبيض" هي الجزء الثالث لثلاثية الياسمين "غربة الياسمين" 2014 و"ياسمين العودة" 2021، وهي آخر إصدارات الروائية خولة حمدي لعام 2023، الصادرة عن الدار المصرية "كيان للنشر والتوزيع" والمقدمة من طرف إدارة مكتبة ضاد.

عبر امتداد الصفحات الـ 575 لرواية "ياسمين أبيض" تقدم خولة حمدي عالماً متخيلاً محاك للواقع المعاش بتناقضاته إكراهاته وبالتحديات التي يفرضها مقدمة بذلك أنساقاً مضمرة ومعلنة عن الرفض التحدي الأمل التفاؤل الحرب الحرمان الانسانية الأمومة الحب...

تنطلق أحداث الرواية من فضاءات جغرافية مختلفة بدءاً من الريف التونسي "طبرقة" إلى الأراضي الفرنسية وصولاً إلى سويسرا ومن ثمة إلى عمان وسوريا تدور أحداث الرواية حول فتاة تونسية تدعى "ياسمين عبد القادر" وهي الشابة الثلاثينية المقيمة بالريف التونسي "طبرقة" والتي عانت ألم الفقد والحرمان في ريعان شبابها؛ إنها الاقدار الذي حرمتها زوجها "هيثم الأندلسي" وأهدتها وحيداً "عز الدين" كثمرة تكلل زواجاً دام لسنتين فقط لتحمل بعدها لقب أرملة لشهيد القضية الانسانية.

يكشف خطاب السرد عن كفاح ياسمين وهي الأرملة الضعيفة التي أعلنت عن صمودها واستكمال حياتها باشتغالها في مكتبة لبيع الكتب واقامة الورشات التعليمية للأطفال الصغار من رسم كتابة وتلوين... لتأخذ الأحداث منحى تصاعدياً وتعلن عن وتيرة معاناة أخرى مع ولدها "عز الدين" في رحلة البحث عن الطرق الممكنة لعلاج فبعد حالات الإغماء التعب والارهاق تكتشف أن الولد مصاب بمرض مناعي خطير "متلازمة شيدياك هيجاشي" أنه مرض نادر فأى نشاط أو مجهود يعرضه إلى مضاعفات لا تحمد عقباها كما أن احتمالات الممكنة للحياة شبه معدومة ذلك أن الأطفال بعد سن الخامسة تقل فرصهم في النجاة فهم بحاجة ماسة إلى عملية زراعة الخلايا الجذعية ويحتاج إلى التطابق مع متبرع بفرصة جد ضئيلة فنسبة إيجاد متبرع يتطابق معه شبه مستحيل، كما أن حالة "عز الدين" غير مستقرة فهو يعاني من ضعف على مستوى القلب .

بعد سفر ياسمين إلى فرنسا من أجل البدء في رحلة العلاج الممكنة لعز الدين بمساعدة الطبيب "يوسف الحداد" الذي عاش هو الآخر واقعا مليئا بالتحديات للوصول إلى حلمه المتمثل في انشاء مؤسسة تهتم بالأمراض النادرة حول العالم. تلتقي ب"عمر الرشيد" فبعد ترده مؤخراً إلى ريف طبرقة ها هي تلتقي به مجدداً على الأراضي الفرنسية للاطمئنان على صحة "عز الدين" وتقديم المساعدة.

"عمر" هو شاب مغربي مقيم في ضاحية "لوزان" بسويسرا انه دكتور جامعي وشريك سابق "لهيثم الأندلسي" وهو صديق مقرب منه، اذ يسعى إلى مساعدة أرملة صديقه كنتكفير عن احساسه بالذنب اتجاه موته، فيحاول احتضان عز الدين ارضاءً لضميره من جهة ومن جهة أخرى ملء فراغاً داخلياً ناتجاً عن عقمه بسبب حادثة انفجار المختبر التي خلفت آثارها على المدى البعيد فكان اجهاض زوجته آية في كل مرة ثماً غالياً لذلك فيظهر دعمه المادي في كل مرة خفية فيسدد مصاريف المشفى ويرسل تبرعات ويقدم هبات... لينتهي به المطاف إلى الموافقة على طلب زوجته وحضنة

طفلين فلسطينيين صهيب وآلاء من دار الرعاية في سوريا لعل ذلك يكون كفيلاً بإنقاذ زواجه من آية التي انتظرت طيلة أربع سنوات حينما كان محكوماً في السجن الفرنسي بتهم باطلة ليكمل انتظارها بحفل بسيط عقد فيه قراهما فور خروجه.

مع تسارع وتيرة الحكى السردى تتأزم الأحداث أكثر لتعيش آية وهي الفلسطينية التي نشأت في ألمانيا والمقيمة في سويسرا مع زوجها أزمة نفسية بعد وفاة "آلاء" المصابة بثقب في القلب لتعيش حالة صدمة فتقرر على أثرها خوض تجربة الاحتضان مرة أخرى مع الأطفال المصابين بأمراض مزمنة فاحتضنت كل من مازن، مي، لميس، عدنان، صفوان، يارا، فادي، ورشا فهم أطفال لهم احتياجات خاصة وجميعهم مصاب بعلة مستعصية كالشلل تأخر النطق تأخر ذهني عيب خلقي في القلب ضمور العضلات متلازمة داون... لتفتح بيتها إلى هذه الفئة المنسية من الأطفال وتمارس أمومتها بالفطرة على أطفال لن تتخلى عنهم أبداً لن تدير ظهرها لهذه الفئات الضعيفة وإن كان قدرها الموت مبكراً فإنها تسعى جاهدة إلى تسليمهم لمثواهم الأخير بصورة تليق ببراءتهم وبحرماتها المرير لتقرر انشاء مؤسسة خاصة لرعاية الأم والطفل في المخيمات بعد انفصالها عن عمر.

لتنتهي أحداث الرواية بنجاح عملية زرع الخلايا الجذعية "لعز الدين" رغم المخاطر والصعوبات التي واجهته في العملية إلا أن القدر منحه موعداً آخر مع الحياة وانتصر على مرضه بمعجزة إلهية، ليكتب له ولياسمين عمراً جديداً ونهاية لأحزان رافقتهم طيلة ست سنوات متتالية لتعود ياسمين إلى التدريس في الجامعة ضمن قسم علم الاجتماع لطلاب العلوم السياسية والحقوق قبل أن تقرر الزواج من عمر الذي سيكون حتماً اختياراً مناسباً يضمن لها الحفاظ على ذكرى زوجها الراحل وبطولته التي ستسعى وبشتى الطرق من أجل إيصالها لعز الدين فهي لن تطمس بحال من الأحوال تاريخاً مشرفاً لبطل اختارته الشهادة ولن يكون ذلك إلا عبر "عمر الرشيدى" الذي سعى جاهداً إلى التعافي من صدمات الحياة وتبرمها فتصالح مع فكرة عقمه سريعاً ورضي به وقرر إبرام عقد جديد مع الصمود فالتأم صدعه وامتلأ خواءه المخبوء الذي طالما تردى فيه مترنحاً نحو هوة عميقة فلم تبقى هناك مساحات فارغة تشعره بالعجز فصهيب وعز الدين كانا أجمل العطايا التي حصل عليها، لن يسمح لنفسه أبداً أن يكون طرفاً في علاقة تشعره بالدين العجز وقلة الحيلة، أما آية فقد اختارت نفسها فهي لن تقبل أبداً أن تكون نصف امرأة وانتصرت لغريزة الأمومة التي بداخلها فجاء إعلان الانفصال عن عمر بداية نحو غايتها التي سافت بها إلى الأردن لممارسة أمومتها مع جميع أطفال المخيم ومن ثمة الزواج بطبيب حقق لها أمنية الخلفة.

إذن ياسمين عمر آية هي شخصيات سردية فاعلة ضمن المسار السردى إذ تتحكم في فعل الحكى وسير الأحداث العامة لرواية "ياسمين أبيض" التي تعالج قضايا الإنسان وواقعه ناهيك عن وجود أصوات عدة من مختلف بلدان العالم مثل رنيم، رانيا، ميساء، وائل، زهور، حميد، كمال، فاطمة، جورج، كريستين، نرجس، سكينه، ميار، كزافيي، فرح، ريكما، كاثرينا، أم الحسن، أبو الحسن، كاميليا، لوزيا، عائشة، شهاب... كل تعامل مع ما تمليه الظروف وما يليق به.

2.3. العنوان ودلالته الثقافية:

بعد العنوان من بين أهم المناصات التأليفية التي تحظى بأهمية كبيرة؛ إذ يشكل فضاءً واسعاً يختزل رهانات مقصدية تفتح على عديد القراءات والتأويلات، انطلاقاً من هذه الأهمية فإن الدراسات الحديثة والمعاصرة قد أولت عناية خاصة

بهذا المناس، فالقراءة التحليلية الفاعلة لا تكتفي بقراءة الداخل النصي فقط بل تمتد إلى ما يحيط به من مناصات نشرية وتأليفية كالتجنيس، الغلاف، الألوان، الصورة، العنوان... وبالتالي استنطاق ما هو لساني وما هو غير لساني كذلك. والواقع فإن العناوين لا تقل أهمية عن العمل الروائي نفسه؛ فالعنوان عبارة عن تكثيف دلالي يختصر مضمرات نصية مختزلة لما هو كائن داخل الفضاء النصي.

يأتي عنوان الرواية "ياسمين أبيض" مشكلاً من اجتماع دالين هما: "ياسمين"، "أبيض" والواضح أنّ كلمة "أبيض" جاءت صفةً للياسمين فالأبيض هو تحديد لوني يوضح صفة الياسمين، وهو مركب اسمي حُذِف فيه "المسند إليه" والمقدر ب: هذا، هو... فتقدير الجملة: هذا الياسمين أبيض فالملاحظ بقاء المسند للإخبار عنه.

ترد مفردة "ياسمين" نكرة غير مخصصة تم وصفها بالأبيض قصد تخصيصها بلون معين من الألوان، إنه ياسمين أبيض يحمل صفة النقاء والطهر وهي فجوة نحوية تشير لوجود غموض دلالي للعنوان.

بالعودة إلى الداخل النصي نجد أنّ الكاتبة "خولة حمدي" تسرد أحداث ومواقف من حياة امرأة تدعى "ياسمين" (الذات الفاعلة ضمن المسار السردى) وما مرت به من ظروف صعبة بعد وفاة زوجها ومرض ابنها الوحيد "عز الدين" وبالتالي فإن فعل الحكيم كان أنثوياً إذ عبّرت عنه بعنوان "ياسمين أبيض" كإقتصاد لغوي موجز لما هو كائن داخل الرواية أنّها كشفرة فنية جمالية دالة على مقاصد معينة تنبئ عن وجود وعي جاد بالمتغيرات الحاصلة في المجتمع التونسي بصفة خاصة والعالم العربي بصفة عامة.

بداية يمكن الانطلاق من فرضية نؤمن فيها أنّ حضور المرأة "ياسمين" في خطاب العنوان لم يكن محض صدفة أبداً وهي في أغلب الظن إشارة إلى مكانة المرأة ودورها الفاعل في ضمن فضاء المحكي السردى الداخلي فالعنوان جاء مُنَوِّهاً بصيغة خطية مباشرة وصرخة عنها وقد جاء وصفها بالبياض فهي ياسمين أبيض نقى طاهر يتسم بالشفافية والوضوح؛ إذ لا شك أنّ هذه الياسمين المحفوظة على نقاء لوّحها قد صمدت طويلاً كي لا تلوّحها الظروف إنّها قصة تحدي لامرأة أرملة عاشت الكثير في سبيل ضمان شفاء وحيدها من مرض مميت في عوالم سطرتها عقليات ذكورية، إنه الخطاب الأولي الذي يخاطب المتلقي ظاهرياً أما ضمناً فيوجد نسق ثقافي مخبوء تحت غطاء الجمالي من العنوان الذي يخفي خطاب الجندر ونظرة الفحولة التي تحصر المرأة في زوايا ضيقة باعتبارها مخلوقاً هشاً ضعيفاً، بيد أن "ياسمين عبد القادر" نسفت تلك النمطية وتحذت ظروفها القاهرة لتثبت قوتها صمودها وحفاظها على لوّحها الأبيض تقول: "وماذا أبيضاً؟ عليك أن تكون أبيض... البياض أين هو البياض؟ لم يكن سموراً؟ انتهى إلى ذلك الاستنتاج في مرارة لقد كانت حياته وحيثه غاليتين حتى أقنعتة رنيم برمي التهمة كاملة على هيثم قبل أن يلطخ يديه بالطين... لم يعد أبيض فقد طهره ونقاءه إلى الأبد وسكن اللون الرمادي داخله"⁸

إذا إنّها العلاقة الدلالية التي تربط خطاب العنوان بالفضاء النصي الداخلي للرواية وعليه يمكن القول إن عنوان رواية ياسمين أبيض قد أدى وظيفته بنجاح من إغراء أدلجة ووصف، فضلاً عن توفيق "خولة حمدي" في بناء نسق دلالي مكثف يكتنز خطاب السرد الداخلي باقتصاد لغوي مُختزل في كلمتين اثنتين هما: ياسمين وأبيض.

3.3. الأنساق المضمرة في رواية ياسمين أبيض:

يبني المسار السردى لرواية "ياسمين أبيض" لخولة حمدي وفق توجهات أيديولوجية مختلفة (دينية، سياسية، اجتماعية، نفسية...) تطفو على السطح من خلال سلسلة الأحداث والمواقف التي تعيشها الشخصيات السردية داخل الإطار العام للخطاب السردى.

تطرح "خولة حمدي" قضايا فكرية وأيديولوجية ضمن خطابها السردى؛ إذ تسلط الضوء على بعض الزوايا المظلمة والجوانب المهمشة المسكوت عنها داخل المجتمع، فالقراءة العمودية للرواية تكشف عن وجود أنساق مضمرة مخبوءة تحت غطاء الجمالي والبلاغي من الرواية، وهي في حقيقة الأمر قضايا الراهن المعاش والظروف الاجتماعية الحاصلة من أنساق مضمرة تعالج ظواهر: العنف، التحدي، الظلم، الفساد الاجتماعى والسياسي، الأنا والآخر، الضياع، التهميش، الدين، الحجاب، الحب، الأخلاق، المرأة...

عبر مسارات السرد تعبر "خولة حمدي" عن توجهات فكرية ورؤى استشرافية للمجتمع التونسي من خلال عدّة أنساق ثقافية مضمرة ضمن الحكى السردى ومن بين هذه الأنساق نجد:

3.3. نسق الأخلاق والقيم الانسانية:

تكشف القراءة الثقافية العمودية لرواية ياسمين أبيض عن نسق الظلم والفساد والسياسي كمحاولة لتسليط الضوء على بعض الممارسات الجائرة ضد أفراد المجتمع، فئات مؤرست عليها أشد أنواع الظلم قساوة من مثل حرب سوريا 2013 التي خلفت عشرات الأبرياء من أطفال نساء وشيوخ الذين غادرو مخيم اليرموك الذي ضم عديد اللاجئين الفلسطينيين والسوريين الفارين من فتن الحروب التي تجردت من كل صفات الإنسانية والأخلاق الفاضلة.

يظهر نسق الأخلاق واضحا في فصول الرواية من خلال شخصياتها الفاعلة؛ فرغم الاغراءات الخارجية وظروف الفساد المشجعة على الانحراف إلا أن ياسمين وبرغم قدرتها على استعمال صلاحيات بطاقة الائتمان والأوراق الرسمية لوالدها المريض "سامي كلود" لتغطية نفقات العلاج، لم تفكر بذلك ولو مرة قبل ان تسترجعها من شقيقتها الفرنسية سارة التي تسببت في أزمة نفسية لوالدها إثر احتياها على ممتلكاته وبالمكر والخديعة، انما الاخلاق كانت ميزها وانسانيتها التي دفعتها إلى إخراج والدها من المصحّة الفرنسية والتكفل بنفقات العلاج ومن ثمة السفر إلى ريف طبرقة من أجل استكمال فترة لنقاها التي تخللتها عنايتها الخاصة به لتجاوز مرحلة الانهيار العصبي ف: "كانت ترافقه في جولة عبر الحقول كلّ مساء تدفع كرسيه المتحرك على الطريق المعبد حتى تشرف الشمس على الغروب فترجع أدراجها"⁹ ليتماثل إلى الشفاء تدريجيا بعد أكثر من ستة أشهر من المرض والمعاناة.

تلقت رسالة الخطاب انتباه القراء إلى الفئات المهمشة داخل المجتمع التونسي خاصة والعالم أجمع بشكل عام، من خلال التطرق الى قضية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة والأمراض المستعصية حول العالم، قضية وُضعت على الرف جانبا في انتظار مؤجل لحلول ما، لأنها ببساطة مجرد أقدار مسطرة سلفا فهل يعقل التزام الحيادية تجاه ذلك؟ بالطبع لا ف"خولة حمدي" قد اشتغلت على إيصال صوت هذه الفئات الضعيفة عبر عدّة فواعل سردية فأية رغم مقدرتها على احتضان أطفال بصحة جيدة إلا أنها في كل مرة تحاول احتضان طفل من ذوي الأمراض المستعصية (آلاء، مي، صفوان، مازن...) لتمنحهم علاجا مجانيا أو على الأقل نهاية حياة بلا ألم.

إنّما حالات جينية معقدة فرضتها ظروف العيش في مخيمات النزوح: " تلك البيئة التي تعاني من سوء المرافق الصحية، وضنك العيش كان الشباب يجد صعوبة في إيجاد نصفه الآخر خارج دائرة الأقارب وأبناء العمومة وكلما زادت درجة القرابة بين الزوجين تزايدت الطفرات الجينية المشتركة بينهما... يتخلى عنهم ذويهم بسبب التكاليف العالية" لينتهي بهم الوضع إلى التخلي عنهم في دور الرعاية لاستقبال ماثوهم الأخير بحجة الفقر وقلة الامكانيات، إلا أنّ أغلبية الأزواج الحاضنين يبحثون عن أطفال أصحاء فما هو ذنب هذه الفئات ألا يجدر بنا التضامن مع هؤلاء الأطفال ولو بالتوعية؟ فكم من آية حملت لواء الدفاع عنهم بمفردها؟ أليست القضية قضية انسانية تخصنا جميعا؟

4.3. نسق التحدي:

تفرض ظروف الحياة المعاشة العديد من التحديات والمصاعب التي تقف حاجزا في سبيل تحقيق الأهداف المرجوة، فهناك من يتوقف عند أول سقطة وأمام كل عثرة وهناك من يجعل من كل عقبة فرصة جديدة لإثبات قدراته وإخراج أفضل ما يملك وهو واقع الشخصيات السردية الفاعلة التي أثرت الصمود وعدم الاستسلام لضراوة الحياة وتعبتها. يعلن خطاب السرد عن وجود نسق التحدي والصمود الذي يتضح من خلال فعل الحكّي السردى وذلك على امتداد الصفحات 575 والذي يتضح من خلال سلسلة الأحداث والمواقف التي واجهت الشخصيات داخل الرواية؛ فهي هي "ياسمين عبد القادر" وهي الأرملة الضعيفة التي لم تجد وقتا للاختيار فالحياة لا تقبل منطق الضعف أبدا لا بد من الاستمرار والمكافحة فكانت بدايتها من المكتبة التي صارت شغلها الشاغل تباع دفاتر وكتب وتنظم ورشات تعليمية للأطفال من رسم تلوين... لضمان حياة كريمة لولدها عز الدين الذي تفاقمت حالته الصحية لتجد نفسها وجهها لوجه مع مرض مناعي مميت لتبدأ رحلة معاناة أخرى باحتمالات شبه معدومة للنجاة، إلا أنّها لم تستسلم لواقع ميؤوس منه لتقرر التوجه للعاصمة التونسية للتعرف أكثر على حالته ومن ثمة السفر إلى فرنسا لبدء رحلة العلاج لتنتهي إلى الموافقة على إجراء عملية طارئة للقلب ثم الانتقال إلى مرحلة العلاج الكيميائي والمباشرة في عملية زرع للخلايا الجذعية لقد كانت تلك الخطوة آخر فرصة لولدها وأكبر رهان تقوم به خلال حياتها لتدفع ثمنه غالبا إما موت ينتهي فيه كل شيء أو بداية حياة جديدة دون ألم أو خوف لكن: " كان يجب أن تبقى قوية لتمده بالقوة"¹⁰ فهي الأم الصامدة التي يجدر لها الاستمرار في رحلة التحدي التي بدأتها تقول في تحدي: " ليست ساعة الصفر يا صغيري سنقاوم، سنقاوم أنا وأنت"¹¹ فهي تؤمن أن الأقدار: " ستتصر على نبوءات الطب...إنهم يكذبون، يقولون بأنها النهاية لأنهم لا يعلمون...أنت بطل ابن بطل"¹² فعز الدين يستحق أمّا: "قوية، تفعل المستحيل من أجله، لأنه طفل قوي، وصامد في وجه المرض...رغم نبوءات الطب المتشائمة وياسمين قوية"¹³.

إن صمود ياسمين أمام ظروف المرض وإيمانها بشفاء صغيرها قد أعطى أكله فيها هو قد أفاق من غيبوبته التي دامت شهرا وأثبت لهم أن الأقدار قد انتصرت على نبوءات الطب النسبية لتسجلها الصحف والأخبار كأول حالة من نوعها حول العالم.

هذا ويظهر الخطاب السردى تجاوز آية لحالة الخوف الفراق والحداد ففي النهاية وجدت طريقها في الحياة ورسالتها بل أثبتت أن التخلي والانسحاب لا يعد خسارة بل بداية وفرصة جديدة لها قبل أن تقرر العمل على مشروع انساني اذ فعلت الممكن والمستحيل من أجل تحقيقه وظلت صامدة حتى ذلك الوقت وها هي قصة صمودها أسفرت

عن انشاء: "مؤسسة لرعاية الأم والطفل في المخيمات تنتقل بشكل مستمر بين مخيمات الأردن للتوعية ضد الأمراض الجينية التي تصيب الأطفال في العائلات التي تربطها زيجات الأقارب لأجيال متعددة" أنها رؤيتها الإصلاحية الخاصة التي اشتغلت عليها طويلاً وحققتها نتيجة ماثرتها وصمودها.

كما أن المحامية المصرية "رنيم شاكّر" قد تحصلت وأخيراً على شهادة تكلل مسار تفوقها ليصبح اسمها الدكتورة رنيم شاكّر بعد رحلة طويلة من التحدي والصمود فقد غادرت القاهرة تاركة ولديها إياد وسمر مع زوجها شهاب فمسؤوليات الأسرة ورعاية ولديها وظروف العمل مع مشرف خسيس لم يمنعها من استكمال مسار بحثها: "غمرتها سعادة مبهجة وهي تتلقى التهاني...عانت شهاباً وطفليها...لقد انتهى الكابوس"¹⁴

5.3. نسق الأنا والآخر:

تعد ثنائية الأنا والآخر من بين الثنائيات الضدية التي اشتغلت عليها العديد من الروايات فتناولت تلك العلائق المركبة التي تجمع الشرق بالغرب إذ تتراوح بين التباعد، الصراع والتنافر أحياناً في مقابل التقارب، التلاحق والتحاور أحياناً أخرى.

يظهر التقابل المباشر بين العالمين الشرقي والغربي "الأنا والآخر" منذ الوهلة الأولى لفعل الحكيم ففي الصفحات الأولى للرواية نجد أن الكاتبة "خولة حمدي" بداية تقوم برسم مشهد سردي يوضح طبيعة العلاقة بين "ياسمين" الفتاة التونسية و"سارة" الفتاة الفرنسية وهي علاقة صراح تنافر وصدام

تظهر علاقة التباعد بين ياسمين التي تمثل التفكير أو الثقافة الشرقية وسارة التي تمثل الآخر الغربي من خلال الصراع حول أملاك والدهما سامي كلود (كمال عبد القادر) إذ تظهر أطماع سارة في الاستيلاء على جميع أملاك والدهما بالحديعة والاحتيايل فهي البنت الفرنسية المذللة لسامي كلود ويحق لها نهب كل شيء من ممتلكات وأموال الأمر الذي جعلها تدير ظهرها له وترمي به في المصححة كشخص غريب دونما أدنى شفقة أو رحمة: "متى صار والدك عبناً عليك، وقد كنت مدللته طوال حياته؟ لقد كانت كل طلباتك مجابة، فلم يكفك ذلك حتى امتدت يدك إلى كرامته؟ كيف سولت لك نفسك تركه في المصححة والتخلي عنه؟"¹⁵.

تحاول ياسمين وهي البنت المولودة لأم تونسية (فاطمة) اخراج والدها من المصححة الفرنسية والتكفل بنفقات العلاج ومن ثمة نقله إلى تونس لاستكمال فترة النقاهة في جو مناسب وتعمل على استرجاع ممتلكاته المنهوبة والحفاظ على ماء وجهه فأبي وضع وصله وهو الدكتور الجامعي المحترم وسط محيطه وأقرانه هل يعقل ذلك؟

تسعى البنت الشرقية المنبوذة "ياسمين" لرفع قضية نصب واحتيال ضد أختها "سارة" (أخت من طرف الأب): "فلترجع ممتلكات والدنا، وسأسحب الدعوى على الفور...لن أسمح بعودته إلى فرنسا قبل أن تتحسن صحته...وليس من حق أحدنا أن ينفق سنتين واحداً من ماله الخاص، فلتعد سارة ما استحوذت عليه. هذا ما لدي"¹⁶.

لقد صارت المسألة إذاً قضية نزاع بين أختين أحدهما فرنسية "ابنة إلين" والأخرى عربية تونسية ابنة "فاطمة"، والحق فإن الصراع بين الشخصيتين سارة وياسمين هو صراع قديم أزلي بين الآخر الذي له صلاحية امتلاك كل ما يحلو له فيحق له العيش في رفاهية مطلقة مي مقابل الأنا العربي الضعيف الذي لا يحق له امتلاك أي شيء، إنها النظرة الدونية

التي جاءت هذه الرواية من أجل دحضها من خلال إلغاء الفوارق الموجودة بين الأنا والآخر والعمل على تكسير تلك النمطية ونسف الفكر السائد الذي ينتصر للطرف الآخر ويعطيه صلاحيات المركزية والهيمنة.

هذا ويتضح من خلال تسليط الضوء على شخصية "عمر الرشيد" أنه قد تمت مضايقته أثناء نزوله في مطار "باريس أوزري" فهو يدرك أن وجوده في الأراضي الفرنسية: "غير مرغوب وقد يتعرض للمضايقة"¹⁷ فهو سجين سابق بتهمة تفجير مختبر لم يكن له ذنب في فيه، بل ذنبه الوحيد أن انتمأه كان عربياً وذلك كفيلاً بتوجيه أصابع الاتهام إليه وسجنه مرتين على التوالي ومن ثمة مضايقته بعد خروجه ومتابعة تحركاته على الأراضي الفرنسية فوجوده في فرنسا يعني تحقيقاً وملاحقة: "مشى برفقة الضابط إلى غرفة داخلية، حيث تعرض لتفتيش دقيق من رجلي أمن... ثم اقتيد إلى مكتب صغير حيث كان الضابط في انتظاره... هل أحتاج إلى استدعاء المحامي الخاص بي؟... ذلك يعتمد على.. علاقتك بالشبكة الإرهابية التي تهدد الأمن الفرنسي حبس عمر أنفاسه لثوان... أطلب بحضور المحامي على الفور"¹⁸. بعد نهاية التحقيق تكفل "جورج" وهو المحامي الموكل بقضية "عمر الرشيد" من منحه إذنًا بالخروج، إلا أن ذلك مشروط بتعيين رجل أمن يتبعه أينما حل، لقد صار وجوده يشكل خطراً للأمن الفرنسي كيف لا وهو من أصول عربية والعرب مجرد جماعات إرهابية متطرفة تدعو للعنف والتطرف، إنها صورة العربي التي اخترها الآخر وصدقها أياً تصديق، فلم تشفع "العمر الرشيد" كونه رجلاً مثقفاً ودكتوراً جامعياً بعيداً كل البعد عن مشاكل السياسة وتبعاتها؛ مادام انتمأه عربياً فإنه محل شك على الدوام؛ إنها نظرة الآخر للعربي والاسلام بصفة عامة وهي القضية التي انتصر لها خطاب السرد في رواية "ياسمين أبيض".

4. خاتمة:

من بين أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث ما يأتي:

- يؤدي عنوان رواية ياسمين أبيض وظيفة الإغراء الأدلجة والوصف بنجاح، فضلاً عن توفيق "خولة حمدي" في بناء نسق دلالي مكثف يستوعب خطاب السرد الداخلي باقتصاد لغوي مُحْتَزَل في كلمتين اثنتين هما: ياسمين وأبيض.
- يكشف خطاب العنوان عن حضور المرأة "ياسمين" كإشارة إلى مكانة المرأة ودورها الفاعل في ضمن فضاء المحكي السردية الداخلي؛ فالعنوان جاء مُنَوِّهاً بصيغة خطية مباشرة وصريحة عنها وقد تعمدت وصفها بالبياض فهي ياسمين أبيض نقي طاهر يتسم بالشفافية والوضوح.
- عبر امتداد الصفحات الـ 575 لرواية "ياسمين أبيض" تقدم خولة حمدي عالماً متخيلاً محاك للواقع المعاش بتناقضاته زيفه وبالتحديات التي يفرضها مقدمة بذلك أنساقاً مضمرة ومعلنة عن الرفض التحدي الأمل التفاؤل الحرب الحرمان الإنسانية الأمومة الحب...
- يُبْنِي المسار السردية لرواية "ياسمين أبيض" لخولة حمدي وفق توجهات أيديولوجية مختلفة (دينية، سياسية، اجتماعية، نفسية...) تطفو على السطح من خلال سلسلة الأحداث والمواقف التي تعيشها الشخصيات السردية داخل الإطار العام للخطاب السردية.
- تطرح "خولة حمدي" عدة قضايا فكرية أيديولوجية سياسية دينية؛ إذ تسلط الضوء على بعض الزوايا المظلمة والجوانب المهمشة المسكوت عنها داخل المجتمع، فالقراءة العمودية للرواية تكشف عن عدّة أنساق مضمرة

مخبوءة تحت غطاء الجمالي والبلاغي من الرواية، وهي في حقيقة الأمر قضايا الراهن المعاش والظروف الاجتماعية الحاصلة عبر أنساق مضمرة مثل: العنف، التحدي، الظلم، الفساد الاجتماعي والسياسي، الأنا والآخر، الضياع، التهميش، الحجاب، الحب، الأخلاق، المرأة...

وفي الختام يوصي هذا البحث بما يأتي:

. ضرورة توسيع الدراسات الثقافية لتشمل روايات نسوية أخرى (في المشرق والعربي) لما تحمله من أنساق ثقافية وأيديولوجية تستوعب تحولات الراهن المغربي وذلك على المستوى السياسي الاجتماعي والثقافي.

. إيصال صوت المهمشين، إذ يدعو هذا البحث إلى تسليط الضوء على الفئات الضعيفة والمستضعفة من اللاجئين، ذوي الاحتياجات الخاصة، الأراامل، وكذا الأمراض المزمنة المستعصية... بوصفهم جانب آخر مسكوت عنه الخطابات الأدبية.

. يدعو هذا البحث إلى إعادة النظر في السرد النسوي الذي تجاوز توصيف المأساة إلى البحث عن بدائل اجتماعية، الأمر الذي يدعو إلى إعادة النظر في الكتابات النسوية وموقعها في الدراسات النقدية.

. التركيز على دور المصاحبات النصية في تشكيل الدلالة، إذ يوصي بمقاربة العناوين الروائية باعتبارها ممهّدات أولية لفهم الأنساق الثقافية للنصوص.

. تشجيع الدراسات المقارنة؛ إذ يوصي هذا البحث بمقارنة رواية ياسمين أبيض مع الكتابات النسوية المغربية من مثل نجوى بن شتوان، فاطمة المرزيسي، مليكة مقدم... لرصد تماثلات النسق الثقافي المضمّر.

5- الهوامش:

¹ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، الطبعة 3، مجلد 14، دار صادر: بيروت، 1993 ص 247.

² المجمع اللغوي: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، مكتبة الشروق الدولية: القاهرة، مصر، 2004. ص 918.

³ جورج موان: سوسير أو أصول البنيوية، تر: جواد بنيس، مؤسسة الرحاب الجديدة للنشر والتوزيع، ط 1، مؤسسة الرحاب الجديدة للنشر والتوزيع: بيروت، 2013. ص 79.

⁴ إديث كيزويل: عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، ط 1، دار سعاد الصباح: الكويت 1993، ص 415.

⁵ ابن منظور: لسان العرب، مادة ثقف، ص 492.

⁶ صلاح قنصوة: تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت، ط 1، دار ميريت: القاهرة، 2007، ص 37.

⁷ فنسنت.ب. ليتش، النقد الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات، تر: محمد يحيى، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، 2000، ص 104.

⁸ خولة حمدي، ياسمين أبيض، كيان للنشر والتوزيع، ط 1، كيان للنشر والتوزيع: مصر، 2023 ص 85.

⁹ خولة حمدي، ياسمين أبيض ص 30.

¹⁰ خولة حمدي، ياسمين أبيض ص 368.

¹¹ المصدر نفسه، ص 360.

¹² المصدر نفسه، ص 362.

¹³ المصدر نفسه، ص 383.

¹⁴ خولة حمدي، ياسمين أبيض ص 499.

¹⁵ المصدر نفسه، ص 18.

¹⁶ المصدر نفسه، ص 61.62

¹⁷ المصدر نفسه، ص 181

¹⁸ المصدر نفسه، ص 182، 183.

6. قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

. خولة حمدي: ياسمين أبيض، كيان للنشر والتوزيع، ط1، (كيان للنشر والتوزيع: مصر، 2023).

المراجع العربية:

. صلاح قنصوة: تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت، ط1، (دار ميريت: القاهرة 2007).

الكتب المترجمة:

. إديث كريزويل: عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، ط1، (دار سعاد الصباح: الكويت، 1993)

. جورج مونان: سوسير أو أصول البنيوية، تر: جواد بنيس، مؤسسة الرحاب الجديدة للنشر والتوزيع، ط1، (مؤسسة

الرحاب الجديدة للنشر والتوزيع: بيروت، 2013)

. فنسنت. ب. ليتش: النقد الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات، تر: محمد يحيى، المجلس الأعلى للثقافة، ط1،

(المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، 2000).

المعاجم والقواميس:

. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط3، المجلد 14، (دار صادر: بيروت، 1993).

. المجمع اللغوي: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، (مكتبة الشروق الدولية: القاهرة، مصر، 2004).